مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد 06/ العـــدد02 (2022)، ص ص 535-546

تطوّر العَمَارة الحمّادية و أثرها في تحضّر المجتمع الحمّادي

إبّان عهدي النّاصر والمنصور (454– 498هـ/ 1062– 1104م)

The development of Hammadid architecture and its impact on the urbanization of Hammadi society During the reign of Al-Nasir and Al-Mansur (454-498AH/1062-1104AD)

حسام صلاحي*
المركز الوطني للدّراسات والبحث في التّاريخ العسكري الجزائر
houssam.salahi@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 25./08/ 2021تاريخ القبول: .20./..05../.2022

الملخص:

تكشــف هذه الدّراســة مراحل تطوّر العَمَارة الحمّادية منذ نشــأتها على يد حمّاد بن بلكين وإلى غاية بلوغها مرحلة الذروة إبّان فترة حكم النّاصــر وابنه المنصور، وكيف أثّر هذا التّطوّر العمراني في تحوّل نمط معيشة الحمّاديين من حياة بدوية قوامها الرّيف إلى معيشة حضارية قوامها المدينة، فقد اضطر الأمراء الحمّاديون إلى تعمير مدنهم الجديدة بالوافدين من القرى والأرياف، وكان لازدهار العَمَارة الحمّادية أثر واضح في تحضّر شريحة واسعة من المجتمع الحمّادي.

كلمات مفتاحية: العَمَارة الحمّادية؛ البداوة؛ التّمدن؛ النّاصر بن علناس؛ المنصور بن النّاصر.

Abstract:

This study reveals the stages of development of Hammadid architecture since its inception by Hammad until it had reached its peak stage, and how this urban development affected the transformation of the lifestyle of state's residents, that is from a nomadic life based in the countryside to a civilized life based in the city. The Hammadid princes were forced to reconstruct their cities with the help of immigrants coming from villages and rural areas. The Hammadid construction boom had a clear impact on the transformation of the Hammadids from a Bedouin life to a city life.

Keywords:

Keywords, Hammadid architecture; nomadism; urbanization; Nasser bin Alnas; Al-Mansur bin Al-Nasir.

* حسام صلاحي

1. مقدّمة:

عرفت الدّولة الحمّادية إبّان فترة حكم النّاصر بن علناس وابنه المنصور ذروة تقدمها الحضاري والعمراني، فغدت القلعة –قاعدة حكم الحمّاديين –ثم بجاية منارة الاشعاع الحضاري في بلاد المغرب، فقد عرفت تطوّرا في جميع الأصعدة خاصة مجال العَمَارة الّذي قطع أشواطا لا بأس بها في الجمال والاتقان والإبداع إلى درجة أنّه أصبح محل إعجاب الشّعراء والجغرافيين والمؤرخين. فلم يتوان النّاصر والمنصور في الاستعانة بخبراء مغاربة وأندلسيين وأوروبّيين لتخطيط وتشييد العديد من الصّروح والمنشآت المدنية منها والعسكرية وهو ما كان له أثر واضح في تحوّل نمط معيشة المجتمع الحمّادي من حياة بدوية قائمة على نشاط الرّعي والزراعة إلى مجتمع متحضّر يمتهن الحِرف والصّناعة والتّجارة، وممّا عزز هذا التّحوّل أيضا هو حياة الاستقرار التّي نَعِمَ به الحمّاديون إثر انتقال مقر حكمهم من القلعة التّي تعرضت لتهديدات أمنية من قبل بعض القبائل الهلالية إلى بجاية المحصنة طبيعيا من غرات هؤلاء بالإضافة إلى الدّول المناوئة لهم. وعليه تطرح هذه الدّراسة بعض التّساؤلات، ومنها، ما هي مراحل تطوّر العَمَارة الحمّادية؟ وما هو أثر التّطوّر العمراني الحمّادي في تحوّل نمط معيشة الحمّاديين من البداوة إلى الحضارة؟.

2. مراحل تطوّر العَمَارة الحمّادية

مرّت الدّولة الحمّاديةُ بثلاث مراحل متباينة، والملاحظ أنّ فترة انتعاشها صاحبتها نهضة في المجال العمراني وبالعكس، فإن تراجع الإمارة كانت له تداعياتٌ سلبيّةٌ على مجال البنيان والمنشآت المدنية والعسكرية.

فالمرحلة الأولى امتدت من عهد مؤسس الدّولة حمّاد بن بلكين بن زيري الصّنهاجي إلى عهد بلكين بن محمّد بن حمّاد تُمثل مرحلة بداية الاهتمام بالعَمَارة والعمران فعلى الرّغم من طول مدتها 405هـ/1014م إلى 454هـ/1062م إلاّ أنّ المنشآت المعمارية ظلّت محتشمة واقتصرت على القلعة.

وأمّا المرحلة الثّانية فتُعرف بمرحلة الازدهار أين نهضت فيها الدّولة في كل المجالات إبّان عهدي النّاصر والمنصور 454–498هـ/1062–1104م أين برزت خلالها العَمَارة الحمّادية جليا في الفضاءين المغاربي والمتوسطي.

وأمّا المرحلة الثّالثّة مرحلة التّراجع الحضاري والمعماري والتّي امتدت من سنة 498هـ/1104م إلى غاية سقوط الدّولة 515هـ/1121م فلم تُورد لنا النّصوص التّاريخية والأثرية بنايات مشيدة في هذه الفترة عدا القليل منها.

1.2 بروز العَمَارة الحمّادية

تعود جذور العَمَارة الحمّادية والتّي اعتبرها ابن خلدون أحد أهمّ مظاهر الحضارة (ابن خلدون، 1988، 154/1)إلى عهد حمّاد بن بلكين بن زيري الصّنهاجي (405-419هـ/1014-1028م) لما أقطعه الأمير الزيري باديس مدينة آشير (ابن الوردي، 1996، 303/1)، استطاع أن يُوسع حدود دولته من جبال الأوراس شرقا إلى واد ملوية غربا، أين اختطّ القلعة بجبل كتامة (ابن الأزرق، د.ت، 214/2)، ويُعتبر انشاؤها سنة 398هـ/1007م ميلاد العَمَارة الحمّادية أين شُيِّدت فيها القصور والقصبات والمساجد والبساتين الجميلة، واستطاعت بذلك جذب السّكان إليها (ابن الخطيب، 2003، 329/2)، ويُروى بأن مملوكا روميا يُعرف بونياس هو من أشرف على تخطيط

وبناء أسوراها (ابن حماد، د. ت، 73)، عُدّت من بين أحسن القصور والمساكن (الحميري، 1984، 469) ، واعتُبرت من بين أحصن القلاع وأعلاها (النّويري، 2002، 305/24)، فهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع (المراكشي، 2006، 15) ، فقد بنى حصونها في مدة عامين فقط، ومع ذلك تعرضت للاستهداف الزيري سنة 406هـ/1015م (ابن الأثير، 1997، 602/7)، وتمكن بذلك من تأسيس حاضِرة منافسة لجيرانه الشّرقيين(ابن الأزرق، د.ت، 214/2).

وقد وصف لنا مؤرخٌ مجهولٌ مدى ما وصلت إليه العَمَارة الحمّادية في القلعة من تطوّرٍ واتقانٍ بقوله: " **ولبنى حمّاد بالقعلة مبان عظيمة، وقصور منيعة متقنة البناء عالية السّناء، منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وُضع في وسطه صهريجٌ عظيمٌ تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد. وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرّخام والسّوارى ما يقصر عنه الوصف، وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة؛ وفيها آثار للأول عجيبة**" (مجهول، د.ت، 168) .

ويجدر التّنبيه إلى أنّ العَمَارة الحمّادية عرفت تراجعا ملحوظا بعد عهد حمّاد، فخلفاؤه كالقائد بن حمّاد ومحسن بن القائد وبلكين بن محمّد لم تكن لهم عناية بمجال العمران. فقد أشار ابن الاثير إلى الأحداث غير المستقرة التّي عرفها هؤلاء الأمراء منذ عهد القائد بن حمّاد (ابن الأثير، 1997، 118/8،) وبحسب اعتقاد الباحث فإن عدم استقرار الإمارة وليس منصب الأمير هو من دون شك عامل غير مشجع لتطوّر واتقان مبان جديدة تستحق الإشادة.

وممّا يدلّ على التّراجع العمراني في هذه الفترة هو اغفال النّصوص التّاريخية والجغرافية وكتب الرّحالة من ذكر منشآت معمارية مشهودة تضاهي إنجازات مُؤسِسها، فيمكننا إدراجها كمرحلة الغموض المعماري في الفترة الممتدة من 405هـ/1014م إلى 454هـ/1062م والتّي قاربت نصف قرن من الزمن تداول على حكمها خمسة أمراء لم توضح النّصوص أنّهم شيدوا مبانٍ تستحق الاشادة في القلعة (عزوق، 2008، 102) وفي غيرها من المناطق التّابعة لإمارتهم. غير أنّه ورد عن عبد الرّحمن الجيلالي بأنّ الجامع الكبير المتواجد اليوم في قسنطينة المنقوش في محرابه تاريخ بنائه عائدٌ إلى سنة 430هـ/1038م (الجيلالي، 1965، 390/1)، وأكد الباحث رشيد بورويبة بأن الجدار الشّمالي لهذا المسجد ابتُني في حدود عام 455هـ/1063م (بورويبة، 1977، 222)أي في عهد الأمير النّاصر. ويُحتملُ أنّ هذا الأخير قام بتوسيع المسجد لما ضاق برواده بسبب ارتفاع عدد سكان المدينة.

2.2العَمَارة الحمّادية إبّان عهد النّاصر:

قطعت العَمَارة الحمّادية أشواطا لا بأس بها من التّقدم إبّان عهد النّاصر، فقد سكتت المصادر التّاريخية وكتب الرّحالة عن البنايات المشيدة في الدّولة الحمّادية منذ عهد حمّاد إلى غاية عهد النّاصر، وعلى الرّغم من انشغاله بتوسيع حدود دولته إلى أن وصل به الأمر أن حاصر مدينة الأربس الإفريقية (ابن الأثير، 1997، 215/8). ومع ذلك لم يغفل عن أشغال البنّاء والتّعمير في كلّ من القلعة وبجاية، فجاء عن ابن الخطيب بأنّه بنى قرب القلعة قصورا شامخة أطلق عليها أسماء عدّة، ومن أبرز إنجازاته العمرانية الجامع الأعظم (ابن الخطيب، 2003، 332/2).

ولم يكتف النّاصر بهذا الإنجاز المعماري فحسب وإنّما خطّ لبناء بجاية في حدود سنة 460هـ/ 1067م، وشيّد فيها قصورا في غاية الأبهة والجمال كقصر اللؤلؤة (ابن الخطيب، 2003، 333/2) (ابن خلدون، 1988، 27/6-28)، ويجدر التّنبيه أن بجاية كانت فيها آثار تعود للزمن الغابر (مجهول، د.ت، 129) فقد ذكر الجغرافي حسن الوزان بأن تاريخ بنائها يعود إلى العهد الروماني (الوزان، 1983، 50/2). ويرى الذهبي بأنّها كانت عبارة عن فضاء لرعي الدّواب والمواشي (الذّهبي، 1993، 289/30). فقاطنوها كانوا من البدو البربر(ابن الأثير، 1997، 202/8)، فلم ترق إلى مصاف المدينة إلى أن تمدّنت وأصبحت تنافس كبريات الحواضر المغاربية كالمهدية (برنشفيك، 1988، 413/1) إبّان عهدي النّاصر بن علناس وابنه المنصور.

3.2 تطوّر العَمَارة الحمّادية خلال عهد المنصور

تميّز المنصور عن بقية الأمراء الحمّاديين باهتمامه الخاصّ بالعَمَارة والتّعمير، قال عنه ابن خلدون: " **وكان المنصور هذا جمّاعة مولعا بالبناء وهو الّذي حضر ملك بني حمّاد وتأنّق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرّياض والبساتين**" (ابن خلدون، 1988، 232/6)، وهذا التّميز مكّن العمارة الحمّادية من بلوغها مرحلة الذّروة في الجودة والإبداع.

وذكرت النّصوص التّاريخية المنشئات المعمارية التّي أُسّست في عهد المنصور في بجاية غير أنّه ما نُقل إلينا عن إنجازاته في عاصمة أجداده القلعة ليس بالكثير مقارنة ببجاية، فقد جاء عن ابن خلدون بأن المنصور شيّد في بجاية القصور التّالية: قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السّلام (ابن خلدون، 1988، 232/6). ، وأشار جورج مارسيه بأن المنصور زين القلعة بأسس معمارية (Marçais, 1913, 140).

وتُظهر لنا النّصوص العربية والأوروبّية بأنّ هذا الأمير المولع بالعَمَارة والتّعمير لم تُثنه القيّم والتّعاليم الدّينية ومجريات الأحداث العسكرية السياسية السّائدة يومئذ – الحروب الصّليبية – من التّعامل مع القوى النّصرانية في أوروبّا، فقد ورد عن المؤرخ الفرنسي لوران شارل فيرو L. charles féraud, بأن المنصور دخل في مفاوضات مع باباوات روما من أجل تزويده ببنائين مهرة لمباشرة بعض الأشغال العمرانية في بجاية، وفعلا تمّت هذه العملية على أرض الميدان(féraud, 1869, 76-77).

وحُفظ عن المنصور اهتمامٌ خاصٌ بالإتقان في انجاز العمائر، فقد أمر منذ الوهلة الأولى لرؤية بجاية البنائين بمباشرة العمل بها(ابن الأثير، 1997، 203/8)، وشرع في تجديد بعض القصور التّي بُنيت في عهد والده، وبنى مسجدها الجامع (ابن خلدون، 1988، 232/6). وبلغ حسّه المعماري أن زُينت بعض مجالسه بالرّخام (الحميري، 1984، 81) . وفصّل المؤرخ المجهول البنايات المشيّدة أثناء عهد المنصور، بقوله: « **فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الرّاءون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعا؛ فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرّصة المبنية حيطانها بالرّخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها؛ قد نقشت أحسن**

نقش وأنزلت بالذّهب واللازورد، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة، وصورت فيها الصّور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا» (مجهول، د.ت، 130).

وممّا قاله الشّاعر ابن حمديس واصفا بهاء ورونق المباني المعمارية الحمّادية، بقوله:

أعليت بين النّجم والدّبران قصرا بناه من السّعادة بان

فضح الحورنق والسّدير بحسنه وسما بقمته على الإيوان

فإذا نظرت إلى مراتب ملكه وبدت إليك شواهد البرهان

أوجبْت للمنصور سابقة العلى وعدلت عن كسرى أنوشروان (ابن حمديس، د.ت، 494-495)

وقال في موضع آخر

عرج بأرض النّاصرية كي ترى شرف المكان وقدرة الإمكان

في جنة غناء فردوسيــة محفوفة بالرّوح والرّيحان (ابن حمديس، د.ت، 495)

وبناء على هذه النّصوص، يُمكننا القول بأن العَمَارة الحمّادية بلغت ذروة تطوّرها وشهرتها خلال عهد المنصور الّذي خلّف آثارا مشهودة كالقصور الفارهة (ابن الخطيب، 2003، 333/2)، ومنها قصر اللؤلؤة الّذي وصفه الحميري بقوله: " **وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر، متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة غاية في الحسن فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحلاة والمجالس المقرنصة المبنية حيطانها بالرّخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذّهب واللازورد، وكتب فيها الكتابات الحسنة بالذّهب، وصورت فيها الصّور الحسنة فجاءت من أحسن القصور وأتمها جمالاً**". (الحميري، 1984، 81-82) ، وقصر أميميون (ابن خلدون، 1988، 232/6).

3. أثر تطوّر العَمَارة الحمّادية في تحضّر المجتمع الحمّادي

الملاحظ أنّه كان لتطوّر العَمَارة الحمّادية أثر جلي على المجتمع الحمّادي الّذي تحوّل جزء هام منهم من معيشة بدوية قوامها الرّيف والرّعي إلى معيشة حضارية، وقد عرّف ابن خلدون الحضارة بأنّها: **"تفنّنٌ في التّرف وإحكام الصّنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكلّ واحد منها صنائع في استجادته والتّأنّق فيه تختصّ به ويتلو بعضها بعضا وتتكثّر باختلاف ما تنزع إليه النّفوس من الشّهوات والملاذّ والتّنعّم بأحوال التّرف وما تتلوّن به من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعيّة الرّفه للملك وأهل الدّول أبدا يقلّدون في طور الحضارة وأحوالها للدّولة السّابقة قبلهم"** (ابن خلدون، 1988، 216/1). فبحكم توفر المدينة على مرافق هامّة ومتنوعية مقارنة بالرّيف فإن السّكان الوافدين إليها

انغمسوا في الحياة الحضارية، وهو ما نطبق فعلا على شرائح كبيرة من الحمّاديين الفارين طوعا أو كرها من البوادي إلى الحواضر المشيدة في ربوع الدولة الحمّادية.

1.3 بداية تحضّر المجتمع الحمّادي

الواقع أن تأسيس الدّولة الحمّادية في بلاد المغرب الأوسط أحدث تحوّلا عميقا في نمط معيشة السكان الحمّاديين، فتراجعت تلك النّفرة بين الحاكمين والمحكومين التّي حدثت إبّان هيمنة الفاطميين على بلاد المغرب، ففي الفترة الحمّادية أُتيحت لهم الفرصة التّي لم تكن سانحة لهم سابقا، فأصبح أبناء البلد يتدرجون في المناصب المدنية والعسكرية، فتلاحم الحاكمين مع المحكومين، وهذا ما سنراه فعليا عند تشيد الأمراء الحمّاديين لعاصمتهم الأولى والثّانية من دعوة كافّة طبقات المجتمع للالتّحاق بهما.

إنّ تشيّيد القلعة من قبل حمّاد عُدّت حدثا بارزا في ميدان تحضّر المجتمع الحمّادي، فقد نقل إليها سكان البربر المحيطين بها كسُكان المسيلة وحمزة، وأزال هاتين المدينتين من الوجود، ولم يكتفِ بذلك فحسب وإنّما فتح أبواب عاصمته الجديدة لكلّ الرّاغبين في الالتّحاق بها حتى من اليهود والنّصارى، وهذا ما جعل القلعة تكتظّ بالسّكان في وقت وجيز نظرا للمرافق التّي استُحدث فيها: كالمساجد، والأسواق، والفنادق، والقصور، وكثرة أصحاب الحرف، فأصبحت مقصدا للعلماء وطلاب العلم (ابن خلدون، 1988، 227/6).

وفي ظرف قصير أصبحت القلعة تستقطب طلاّب العلم من بلاد الأندلس المشهورة يومئذ بعلمائها ومدارسها، ومن هؤلاء الوافدين على القلعة، يوجد: محمّد بن محمّد بن عبد الله بن معاذ اللخمي من أهل إشبيلية يعرف بالفلنقي الّذي ارتحل إلى القلعة لينهل العلم من أبي بكر عتيق بن محمّد الرّدائي وكان إماما في الإقراء وعلم العربية والآداب، بالإضافة إلى براعته في الخطّ وجودة الضّبط، وله مصنّفات في علم القراءات، ومن تآلفه : "**الإيماء إلى مذاهب السّبعة القراء**" (ابن الأبار، 1995، 21/2).

وحافظت قلعة بني حمّاد وإلى غاية نهاية عهد النّاصر بن علناس في جذب وتكوين الطّلبة، فقد نشأ وترعرع فيها بعض الفقهاء، كابن الرّمامة (ت. 567 هـ/1171م) (ابن المواق، 2004، 167/1)، ومن العلماء الّذين حلّوا بها أيضا، يوجد: أبو عبد الله محمّد بن أبي الفرج الصّقلي المالكي (516هـ/1122م) (ميارة، 2011، 127/2)، غير أنّ هجمات الأعراب المتكررة وتحطيمهم لمحيطها وقطعهم للمسالك المؤدية إليها بشكل مستمر جعلها تعاني من العزلة.(Marçais, 1913, 140). وهو ما أثّر سلبا على ازدهارها وحضارتها.

وقطعت الصّناعة في القلعة أشواطا كبيرة في الجودة والاتقان والشّهرة يعكس مدى التّحضّر الّذي عرفته، يُعطي ابن خلدون نظرة عامة عن التّحضر فيقول: " **ثمّ إذا اتّسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرّفه دعاهم ذلك إلى السّكون والدّعة وتعاونوا في الزّائد على الضّرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتّأنّق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتّحضّر ثمّ تزيد أحوال الرّفه والدّعة فتجيء عوائد التّرف البالغة مبالغها في التّأنّق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والدّيباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصّروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصّنائع في الخروج من القوّة إلى الفعل إلى غايتها فيتّخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل**

الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصّنائع ومنهم من ينتحل التّجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأنّ أحوالهم زائدة على الضّروريّ ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبيّن أنّ أجيال البدو والحضر طبيعيّة لا بدّ منها كما قلناه"(ابن خلدون، 1988، 150/1).

فقد صُنعت فيها ملابس قلّ لها نظير في الاتقان، بلغ سعر الواحدة منها 30 دينارا (مجهول، د.ت، 170) ، وغدى أهلها أكثر مالا (الحميري، 1984، 469) ، ويرى ابن خلدون بأن الصّناعة تزدهر أكثر في المدن المستبحرة في العمران (ابن خلدون، 1988، 472/1). ويُفيد البكري (ت. 487هـ/1094م) الّذي عاصر دولة بن حمّاد بأن القلعة استفادت من خراب القيروان وأصبحت تستقطب التّجار والرّجال من العراق والحجاز ومصر والشّام وعموم بلاد المغرب (البكري، 1992، 710/2).

ومن مظاهر تحضّر المجتمع الحمّادي هو تحسن المستوى المعيشي إلى درجة أن الأسماك التّي كانت تُصطاد في البرك والمجاري المائية لمنطقة المسيلة وما دنى إليها إذ حُملت كمّياتٌ كبيرةٌ منه إلى القلعة على مسافة اثنا عشر ميلا (الحميري، 1984، 558) ، فنقل إلينا الإدريسي ذلك في قوله: **"دار الملك لبني حمّاد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير وبها من الفواكه المأكولة والنّعم المنتخبة ما يلحقه الإنسان بالثّمن اليسير ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف إليها تصلح فيها السّوائم والدّواب لأنّها بلاد زرع وخصب وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلّت كفت فأهلها أبد الدّهر شباع وأحوالهم صالح"**(الإدريسي، 1989، 261/1).

2.3 تحضّر المجتمع الحمّادي

كان لاستيلاء القبائل الهلالية على سهل الحضنة التّي لم تكن تبعد سوى بعض الكلومترات على القلعة أثرٌ مباشرٌ في إحداث تغيرات كبيرة في نمط معيشة الحمّاديين، فقد أصبحت هذه الأخيرة عرضة لزحفهم المستمر، واعتُبر ذلك عامل مشجع للنّاصر لنقل عاصمته إلى شاطئ البحر، واستطاع بذلك وضع حاجز طبيعي ممثلا في الجبال بينه وبين هؤلاء الأعراب (Beylié, 1909, 10). وتمكμن بذلك الحمّاديون من الحفاظ على أمن دولتهم من خطر القبائل الهلالية وغيرها من الحركات المناوئة لهم إلى غاية سقوطهم أمام الموحدين سنة 1152م (برنشفيك، 1988، 410/1).

يظهر أنّ النّاصر بن علناس اقتفى أثر حمّاد في تمدين عاصمته بجاية، فقد جاء عن ابن خلدون من أنّه لم يكتفِ بترحيل رعاياه إلى حاضرته الجديدة فحسب وإنّما أسقط عنهم الخراج (ابن خلدون، 1988، 232/6)، وهذا بغية استقطاب أكبر عدد ممكن من السّكان، فقد كانت من قبل عبارة عن مرسى صغير لا شأن له بالتّمدن(مجهول، د.ت، 129) . فالنّاصر أدركته المنية وهو في قصره في بجاية ودُفن بها (ابن الخطيب، 2003، 333/2). ففي وقت وجيز تحوّلت فيه بجاية من ريف إلى مدينة، فغدت هذه الحاضرة تستقطب العلماء من الأندلس كأبي العباس أحمد بن طاهر بن علي الأنصاري الخزرجي (ابن الأبار، 1995، 43/1). شأنها شأن القلعة كما ذكرناه آنفا.

ومن عوامل تمدن المجتمع الحمّادي ولاسيما في عاصمتهم الجديدة هو الموقع الاستراتيجي للمدينة، فقد استفادت من إطلالها على واجهة بحرية بالإضافة إلى اتصالها بعدة أمّاكن، ويجدر التّنبيه إلى أن المسافة بين القلعة وبجاية حُددت بأربعة أيام (مجهول، د.ت، 129) .

الواقع أنّ جزء من الحمّاديين عرفوا مظاهر التّحضّر منذ نشأة دولتهم وما صاحبها من انجاز لبعض المباني في الحواضر، غير أنّها لم تُعمم في أنحاء الدّولة إلا في عهد المنصور، فقد اعترف ابن خلدون بأن هذا الأمير هو من حضّر المجتمع الحمّادي (ابن خلدون، 1988، 232/6)، ويُفهم من كلامه بأن الحمّاديين لم يبلغوا درجة وحقيقة التّمدن إلا في عهده.

وانتقلت العديد من المظاهر الحضارية من القلعة إلى بجاية، وعلى الرّغم من احتفاظ المنصور ببعض التّقاليد البدوية كالاقتصاد في العيش والاكتفاء بالقليل منه (ابن الخطيب، 2003، 333/2)، إلاّ أنّه لمك يتورع في إنفاق الأموال والجهد في تنميق بناياته، جاء عن ابن خلدون قوله: "**قد ذكرنا أنّ البدو هم المقتصرون على الضّروريّ في أحوالهم العاجزون عمّا فوقه وأنّ الحضر المعتنون بحاجات التّرف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شكّ أنّ الضّروريّ أقدم من الحاجيّ والكماليّ وسابق عليه ولأنّ الضّروريّ أصل والكماليّ فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر**"، (ابن خلدون، 1988، 152/1) فاقتصاده في العيش لم يمنعه في أن يكون له حس حضاري.

وممّا يدلّ على أن بعض المناطق الحمّادية تحضّرت أن المنصور لمّا احتمى به معز الدّولة أنزله بمدينة تنس (ابن الأبار، 1985، 90/2). ولم تكن حاضرة تنس المدينة الوحيدة التّي استقبلت الفارين، فقد ارتحل إليه أيضا أمير ألميرية معز الدّولة بن صمادح فارا من المرابطين سنة 484هـ/1091م، فأقطعه مدينة دلس فنزلها بأهله وماله (ابن خلدون، 1988، 234/6)، وجاء عن عبد الرّحمن الجيلالي بأن مدينة دلس غدت يومئذ مدينة أندلسية متأثّرة بحضارتها (الجيلالي، 1965، 374/1).

ساهم تطوّر العَمَارة الحمّادية في تحضّر المجتمع الحمّادي، ظهر ذلك جليا من خلال تحسن مستواهم المعيشي وحياة التّرف التّي نعموا بها. هذا وقد أعطى لنا مؤلف مجهول صورة عن المستوى المعيشي الّذي وصل إليها البيجائيون، فقد عرفت بعض الملابس ارتفاعا محسوسا في سعرها، فبلغ سعر العمامة الواحدة ما بين 500 دينار إلى 600 دينارا، فكانوا يعممونها بطريقة متقنة، إذ كان بحوزة الصّناع قوالب من عود يعممون بها زبائنهم مقابل دينار أو أكثر(مجهول، د.ت، 129) .

وممّا يدلّ على أن السّكان الحمّاديين تأثّروا بالمعيشة الحضرية بدل البدوية قلّة شجاعتهم في الحروب فاكتفوا في الغالب بالدّفاع عن حدودهم بدل الهجوم، فقد جاء عن ابن خلدون بأن أهل البادية أشجع من أهل الحضر ومرد ذلك أن هؤلاء سكنوا إلى الرّاحة، وتوسعوا في التّرف والنّعيم، واتكلوا على جيش دولتهم وحصونهم في حمايتهم والدّفاع عنهم، فتركوا السّلاح (ابن خلدون، 1988، 155/1) وما له من صلة بالمجال العسكري، لذلك عوّل القادة العسكريون على تجنيد جيشهم من أبناء القبائل العربية الزاحفة من بلاد المشرق المتعودين على حياة البدوّ.

وعلى الرّغم من نقل الحمّادين عاصمتهم من القلعة إلى بجاية غير أن الأولى لم تفقد مكانتها كلّية، فقد أمّها عبد الله بن محمّد بن يحي بن فرج الزهيري العبدري أواخر القرن الخامس هجري/ الحادي عشر الميلادي، ومكث فيها عشرين عاما مُدّرسا، ولبث نفس المدة تقريبا في بجاية، (ابن الأبار، 1995، 258/2) وظلّت القلعة تُخرج في العلماء حتى بعد القرن السّادس الهجري/ الثّاني عشر الميلادي على شاكلة عبد الله بن محمّد بن يحي العبدري في حدود سنة 519هـ/1125م (ابن الأبار، 1995، 303/2).

وتُفيد دراسة أثرية فرنسية من أن اللُقى الأثرية التّي عُثر عليها في القلعة كبقايا الفخار والأواني الخزفية كانت متأثّرة بنظيراتها الشّرقية، ولا تعتبر القلعة المدينة المغاربية الوحيدة التّي تأثّرت بالهندسة المعمارية المشرقية فحسب، فهناك مدن أخرى كالمهدية التّي تأثّرت هي أيضا بنفس المؤثرات (Beylié, 1909, 41).

ومن الآثار العمرانية التّي خلفها الحمّاديون في مدينة الجزائر اليوم منبر الجامع الكبير بالعاصمة، فقد نُقش عليه تاريخ بنائه بالخط الكوفي بأنّه شُيد سنة 490هـ/1097م كما أورده عبد الرّحمن الجيلالي نقلا عن مفتي الجزائر الشّيخ سعيد قدوره (ت.1066هـ/1656م)، ويؤكد نفس المؤرخ بأن أغلب القصور والمباني الحمّادية في بجاية هُدّمت من قبل الإسبان سنوات احتلالهم لبجاية (الجيلالي، 1965، 1/- 391390).

ويعتقد جوليان بأن نهاية عهد المنصور عُدّ في أمر الواقع بداية تراجع نجم الحضارة الحمّادية (جوليان، 1965، 138/2)، وعلى الرّغم من تراجع مكانة بجاية الحمّادية إبّان خضوعها للموحديين والحفصيين ثم الأتراك العثمانيين إلاّ أنّها ظلّت تظهر بمظهر المدينة الكبرى سواء في المجال الاقتصادي أو الثّقافي أو العسكري، فقد ظلّت تعتبر من القرن الثّاني عشر إلى الخامس عشر كأحد أبرز الأقطاب الممثلة للجزائر الحالية (برنشفيك، 1988، 410/1).

4. خاتمة:

خلصت هذه الدّراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات يمكن حصرها فيما يلي:

- تأثّرت العَمَارة الحمّادية بشكل واضح بالطابع المشرقي، فقد كان للوجود الفاطمي في المنطقة أثر في ذلك، كما تأثّرت أيضا بالنّمط العمراني الأوربي، وفي نفس الوقت لم تنفصل عن النّمط العمراني المغاربي والأندلسي، وأمام كلّ هذه المؤثرات العمرانية غدت العَمَارة الحمّادية فريدة من نوعها في الفضائيين المغاربي والمتوسطي فقد ألهمت بعض الشّعراء المعاصرين واللاحقيين الّذين تغنوا بسحر جمال عمرانها وعمراتها.
- ساهمت المنشآت العمرانية التّي شيدها الأمراء الحمّاديون بدءا بمؤسسها حمّاد مرورا بالأمراء الأخرين خاصة النّاصر والمنصور في تمدين المجتمع الحمّادي تجلّى ذلك من خلال استقطاب التّجار والعلماء وطلاّب العلم من مختلف أقطار المجتمع الإسلامي إلى حاضرتهم القلعة فبجاية.
- إن انتقال مقر حكم الحمّاديين من القلعة إلى بجاية ساهم في محافظة المجتمع الحمّادي على طابع المعيشة المدينة.
- الموقع الجغرافي المهم والمحصن الّذي تمتعت به بجاية جعلها في منأى عن المخاطر المحلية والإقليمية، فلم تتعرض إبّان عهد النّاصر والمنصور إلى اعتداء بحري أو بري، مما ساهم في إرساء دعائم الحياة الحضارية والثّقافية فيها.
- إن الاستقرار الأمني الّذي تمتعت به المدن الكبرى الحمّادية جعلها محطة جذب للمؤثرات الثّقافية ولاسيما من بلاد الأندلس، وهو ما كان له انعكاس جلّي في التّبادل الثّقافي بين الحضارات الإسلامية.
- الموقع الجغرافي للدّولة الحمّادية سمح لها بالتأثّير والتّأثر الثّقافي والحضاري بين الحضارة المغاربية والأندلسية وبدرجة أقلّ الحضارة المشرقية، وهو ما نجم عنه بروز نمط معماري قلّ له شبيه.

- لم يتوان النّاصر وابنه المنصور في الاستعانة بخبرة المسيحيين الأوروبّيين في مجال البناء والعمران وهو ما يُوضح بجلاء مدى اهتمامهم بهذا المجال.
- انعكس انتقال المجتمع الحمّادي من البداوة إلى الحضارة في تحسن مستوى معيشتهم اتضح ذلك من خلال السّلع الزراعية والصّناعية وكذا نوعية الملابس التّي تداولت في أسواقهم.
- كان لتبني الأمراء الحمّاديون سياسة سلمية وخاصة في عهد المنصور الّذي لم يدخل في الحروب إلا من باب الدّفاع عن النّفس دور في ازدهار المجال العمراني والحضاري في إمارته.
- على الرّغم من التّطوّر الحضاري الّذي بلغه الحمّاديون خاصة في مجالي العمران والتّمدن إلاّ أنّ طابع البداوة بقي سائدا غير بعيد عن حواضرهم الكبرى وهذا نظرا للطابع العام الّذي تميزت به بلاد المغرب في تلك الفترة الزمانية.

5. قائمة المراجع:

ابن الأبار محمّد بن عبد الله. (1995) . **التّكملة لكتاب الصّلة**. بيروت: دار الفكر للطباعة.

ابن الأبار (1985). **الحلة السيراء**. القاهرة: دار المعارف.

ابن الأثير أبو الحسن علي. (1997). **الكامل في التّاريخ**. بيروت: دَار الكِتَاب العَربيّ.

ابن الأزرق محمّد. (د. ت). **بدائع السلك في طبائع الملك**. بغداد: وزارة الإعلام.

ابن الخطيب أبو عبد الله بن عبد. (2003) . **أعمال الأعلام فيم بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام**. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن المواق محمّد. (2004). **بغية النّقاد**. الرياض: مكتبة أضواء السلف.

ابن الوردي عمر. (1996) . **تاريخ ابن الوردي**. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حمّاد أبو عبد الله محمّد. (د. ت). **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**. القاهرة: دار الصّحوة.

ابن حمديس الصّقلي أبو محمّد عبد الجبار. (د. ت). **ديوان ابن حمديس**. بيروت: دار صادر.

ابن خلدون عَبْد الرّحمن. (1988). **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر**. بيروت: دار الفكر.

الإدريسي محمّد. (1989). **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. بيروت: عالم الكتب.

برنشفيك روبار. (.1988). **تَارِيخ إفريقية في العهد الحفصي من القَرْن 13 إلى القَرْن15** . تَرْجَمَة حمّادي الساحلي. بيروت: دَار الغَرْب الإسلامي.

البكري أبو عبيد عبد الله. (1992). **كتاب المسالك والممالك. بيروت**: دار الغرب الإسلامي.

بورويبة رشيد. (1977). **الدّولة الحمّادية تاريخها وحضارتها**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية – المركز الوطني للدّراسات التّاريخية.

جوليان شارل. **تاريخ إفريقيا الشّمالية**. (1985). تونس: الدّار التّونسية للنشر.

الجيلالي عبد الرّحمن. (1965) . **تاريخ الجزائر العام**. الجزائر: مكتبة الشّركة الجزائرية.

الحميري أبو عبد الله محمّد. (1984) . **الرّوض المعطار في خبر الأقطار**. بيروت: مكتبة لبنان.

الذَّهبي شمس الدّين. (1993). **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. بيروت: دار الكتاب العَربيّ.

عزوق عبد الكريم. **المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها –دراسة أثرية– (2008)** . أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية غير منشورة. معهد الآثار. جامعة الجزائر.

المراكشي عبد الواحد. (2006). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**. صيدا–بيروت: المكتبة العصرية.

الملك المؤيد، أبو الفداء عماد الدّين. (د. ت). **المختصر في أخبار البشر**. القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية.

مؤلف مجهول (د. ت). **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار – وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب**. بغداد: دار الشّؤون الثّقافية العامة.

ميارة أبو عبد الله محمّد. (2011). **الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام المعروف بشرح ميارة**. بيروت: دار المعرفة.

النّويري أحمد. (2002) . **نهاية الأرب في فنون الأدب**. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

الوزان حسن بن محمّد. (1983) . **وصف إفريقية**. تر. محمّد حجي ومحمّد الأخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

Beylié L. de, (1909), **La Kalaa des Beni-Hammad**, Paris, une capitale berbère de l'Afrique du nord au XIe siècle, Ernest Leroux.

Féraud Laurent charles, **(1869), histoire des villes de la province de Constantine, Bougie,** Constantine, typographie et litiiographie l. arnolet.

Marçais Georges**, (1913),** ***Les Arabes en Berbère du XIe au XIVe siècle***, thèse pour le doctorat ès lettres présentée à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris.